

في الأدب العربي

القصة المصرية

الأستاذ جيب

أستاذ الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن

- ٢ -

أول قصة مصرية بالمعنى الحقيقي خرجت إلى الوجود ، وهي غفلاء من اسم مؤلفها ، فلم تلق أول الأمر الا اهتماما قليلا من جانب المتعلمين ، تلك القصة هي « زينب » مناظر وأخلاق ريفية ، بقلم مصري فلاح — القاهرة مطبعة الجريدة عام ١٩١٤ . ومؤلفها هو الدكتور محمد حسين هيكل ، ولما كان غداة نشرها محاميا صغير السن طموحا لم يشأ أن يذكر اسمه مخافة أن يقف ذلك عقبة في سبيل عمله .

خرجت « زينب » خروجا تاما ، في لغتها وأسلوبها وموضوعها وفي الطريقة التي عالجها بها المؤلف عن جميع ما تقدمها من الآثار في الأدب العربي . وليس هناك علاقة ما بينها وبين قصص زيدان التاريخية ، ولا قصص فرح أنطون الفلسفية ، فلقد كتبت كما يتضح من عنوانها لتصوير الحياة الاجتماعية في الريف بسلسلة من الحوادث تدور حول حياة فتاة قروية .

ونستطيع أن نسرد الحكاية في إيجاز ، فنقول — ان زينب وهي فتاة قروية جميلة ، قوية الاحساس ، بعد علاقة بريئة بشاب متعلم يدعى حامد ابن صاحب الأرض في القرية — قد أحبت فتي يقال له ابراهيم . ولكنها تزوجت على رغم أنفها وبمشيئة والديها من صاحبها حسن . فحرصت على وفائها وولائها له ، ولكنها ظلت على حبها لابراهيم ، ولقد أدى التنازع بين هاتين العاطفتين ، عاطفة الحب وعاطفة الاخلاص الزوجي إلى تأثير سيء في صحتها ، ولما علمت بدخول ابراهيم في الجيش بلغ ذلك من نفسها مبلغا عظيما

حتى أضناها الحزن ثم أودى بحياتها ، وبجانب هذه الخطة تقوم حكاية أخرى . وهي تلك العلاقة بين حامد وابنة عمه ، وهي فتاة من فتيات المدن ، ثم اختفائه عندما أخفق مسعاه في الزواج منها . ويتضح من ذلك ان الخطة على العموم أقل من أن تكفي لملء أربعائة صفحة ، وبالقصة من جهة أخرى عيوب سنعرض لها الآن . وينبغي أن تذكر أن تلك القصة ليست أول مجهود لشاب صغير السن فحسب . بل هي كذلك أول مجهود من نوعه في أدب فني ، فيجب أن ينظر اليها مع هذا الاعتبار . والواقع أن ما في القصة من تفاصيل تستوجب النقد ، يقل شأنه ، إذا قارناه بتلك الحقيقة وهي أن هناك مجهودا بذل ، وأن تلك القصة تعتبر شيئا جديداً من نوعه أضيف الى الأدب العربي .

ويعد بناء هذه القصة ممتعا من الناحيتين الوصفية « والسيكلوجية » وواضح أن القصة ، انما قصد بها انتقاد تلك الروح الرجعية التي ما زالت تسيطر على طبقة خاصة من الناس على الرغم من التقدم الحديث ، على أن نجاحها في هذا السبيل لم يكن تاما ، إذ أن الشخصيات نفسها لم تتركب بدرجة كافية ، اللهم إلا شخصية حامد ، وهي بلا شك تمثل الى حد كبير شخصية المؤلف نفسه . كذلك نلاحظ أن تصوير الأشخاص والحوادث بطريقة « درامية » جاء ضعيفا في الجملة .

وكانت النتيجة أن تعليقات المؤلف « السيكلوجية » كانت تأتي على لسانه هو بطريقة أقرب الى طريقة الكتب المدرسية مع استعمال ضمير المتكلمين الجمع . ويظهر تدخل المؤلف بشكل أوضح في مواضع الوصف . ولقد ذكر هيكل بك في مقدمة الطبعة الثانية الظروف التي وضع فيها كتابه ، وذلك حين كان يطلب العلم في باريس وجدبه الحنين الى وطنه ، فجعل يتمثل في ذهنه جميع مظاهر الحياة القروية ، ومجال الطبيعة في مصر ، ويظهر أثر ذلك في كل صفحة من صفحات الكتاب تقريبا ، في قطع وصفية مسبهة للمناظر الطبيعية ، كالشمس والقمر والنجوم والمحاصيل والجداول والبرك . . . الخ ، ولقد يرتفع أسلوبه في ذلك الى درجة عظيمة من الفخامة والروعة الموسيقية ، ولكن طول الوصف

ما يسبب السامة وتشيت الذهن . ففى كل حادثة وفى كل منظر وصف وتعليق ، مما جعل القصة فى بعض المواضع تسير متعثرة . أضف الى هذا أن الكاتب كان يعتمد أحيانا الى قصص استطرادية تافهة ، لا تمت بصلة قوية الى القصة الأصلية ، لا لغرض سوى أن يستطيع بواسطتها أن يضيف بعض الفقرات الوصفية ، ثم بين الفينة والفينة تظهر بعض جمل مثقلة بالوصف الى درجة تفقد معها منابها ومادتها .

ولكن يجب ألا ننسى أن هذه الفقرات الوصفية تحمل من المعانى الى ذهن القارئ المصرى أكثر مما تحمل الى غيره ، وان تأثيرها الفنى فى نفسه ، يعد أحد الأسباب الرئيسية التى قامت عليها شهرة هذه القصة عند المصريين .

أما ما حوته من المباحث الاجتماعية ، فكان أكثر تمشيا مع الخطية ، اذ كان من المحتم أن يتلصص المؤلف أسباب المساوىء التى ذكرها وأسباب المأساة النهائية ، وأن يرجع ذلك الى أصله فى العادات الاجتماعية . ويغلب على القصة من أولها الى آخرها التعرض لنقد المساوىء التى أنتجها التمسك بالعادات البالية ، ولكن النقد الاجتماعى لم يحشر بالطريقة التى حشرت بها الفقرات الوصفية « والسيكلوجية » ويرجع ذلك الى أن المؤلف قد أجراه على لسان حامد ، وهو شاب متعلم متأثر بأفكار قاسم أمين وغيره من المصلحين الاجتماعيين ، على أن المؤلف كان يلجأ هنا أيضا فى بعض الأحيان الى اصطلاحات الكتب المدرسية .

وكان تنظيم الأسرة وتحرير المرأة هما المحور الذى تدور عليه انتقادات المؤلف الاجتماعية ، أضف الى ذلك بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر ، كبعض الحرف البعيدة كل البعد عن حقائق الحياة ، مثل حرفة طبيب القرية (الحكيم البلدى) ومشايخ الطرق الذين يتجرون بتضليل العامة وغير ذلك .

أما شعور المؤلف القومى ، فكان مضمراً أكثر منه صريحا وان كان قد أظهره فى بعض المواضع ، وبخاصة عند اشارته الى حقارة الخدمة العسكرية ، تحت سيطرة الأجانب .

أما أسلوب القصة فقد سار الكاتب فيه على الأسلوب الأدبى الحديث مع تهذيبه فى أغلب الأحيان فى اللفظ والتركيب ، ويلاحظ فيه من جهة أثر الاصطلاحات العامية الخاصة بدلتا مصر . ويتضح ذلك فى اقتضاب بعض الجمل ، وفى طريقة الانتقال وغيرها ، كما يلاحظ فيه من جهة أخرى أثر الفرنسية ، ويظهر ذلك فى طول الجمل والتوائها مع كثرة الجمل الفرعية والمعرضة التى تدخل على الجملة الرئيسية ، مثال ذلك الجملة التى تبتدىء

بالفقرة الآتية « ومن الظلام روافه » ، صفحة ٣٧ من الطبعة الأولى و ٣٤ فى الطبعة الثانية وكذلك الجملة التى تبتدىء بقوله : ولم تكن الا لحظات ... ص ٨٩ فى الطبعة الأولى و ٧٠ فى الثانية .

أما ما يتعلق بتلك المشكلة الصعبة ، مشكلة أسلوب الحوار فقد لجأ هبكل بك فى شجاعة الى استعمال اللغة العامية اذا كان الحوار بين الفلاحين ، اما اذا كان بين الطبقات المتعلمة فيتركهم يتكلمون اللغة الفصحى .

ويتضح مما قدمنا أن عنصر الخيال فى زينب أقل منه فى مثيلاتها من القصص الأوربية المتوسطة ، وأن ما فى القصة من فقرات عقلية ووجدانية — وهى فى الواقع العنصر الشخصى فيها — يسمو على الناحية القصصية . ولقد ذكر الكاتب فى مقدمة الطبعة الثانية أن القصة فضلا عن مظاهرها الخاصة تأثرت أيضا بطريقة القصة الفرنسية السيكلوجية الحديثة ، ولكننا على الرغم من ذلك — الا اذا ثبت تماما أن القصة قد جرت فى تفاصيلها وأسلوبها وخطتها على نمط القصة الفرنسية — نقول أنه يستحيل علينا أن ننكر على زينب أنها أول قصة مصرية كتبت بقلم مصرى للقراء المصريين ، وأن شخصياتها وأوضاعها وخطتها قد اشتقت من الحياة المصرية الحاضرة .

لم تلق هذه القصة الا اهتماما قليلا حينما نشرت فى عام ١٩١٤ ، ولكنها لاقت بعد ذلك نجاحا كبيرا لما اتسعت دائرة القراء . وكان إعادة طبعها فى عام ١٩٢٩ بناء على طلب الجمهور ، وقد أدى الى ذلك عدة عوامل نذكر منها أنها زادت فى احساس الناس بقوميتهم ، وأن مؤلفها قد ارتفع صيته فى عالم الأدب ، وأنها اختيرت موضوعا لأول « فلم سينمائى » أخرج فى مصر .

ومن أجل ذلك أصبحت القصة موضع بحث ، وكتب فى نقدها بعض مقالات كان معظمها مدحا وتقريظا . ومن أحسن ما كتب فى هذا الصدد مقالان طويلتان للمازنى فى السياسة الأسبوعية بتاريخ ٢٧ ابريل و ٤ مايو من سنة ١٩٢٩ . وحدث أن كتب بعد ذلك كل من هبكل بك ومحمد عبد الله عنان سلسلة مقالات فى السياسة الأسبوعية فى أوائل عام ١٩٣٠ ذات فائدة كبيرة فيما يتعلق بنشأة القصة فى مصر .

يسائل هبكل بك عن أسباب ذلك الضعف وذلك الفقر الغريين اللذين يمتاز بهما الأدب العربى الحديث فى القصة ، مع أن المصريين يمتازون بمقدرة طبيعية على سرد القصص . ولقد علل ذلك بعدة أسباب منها : فقدان المقدرة على طول الخيال ، والفرق بين لغة الكتابة ولغة التخاطب ، وكسل الكتاب المصريين . ولكن ليس

في هذه الأسباب ما يمكن اعتباره السبب الحقيقي وان بدا في الثاني منها بعض الوجاهة . ويذكر هيكلك بك بعض الأسباب الفرعية الأخرى ومنها (١) نسبة الأمية الهائلة في مصر ، وهي تحول دون أى تقدير حقيقى من جهة ، وتكون سببا في قلة العوض المالى من جهة أخرى (٢) عدم التشجيع من جانب الطبقات العالية والطبقات الغنية ، وربما كان السبب في ذلك أن هؤلاء لم يجدوا تشجيعا من جانب المرأة وبهذه المناسبة يشير المؤلف الى أثر المرأة في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر والى أهمية تشجيع المرأة للحركة الأدبية في الأدب العربى القديم (٣) الخط من قيمة الأدباء في مصر والتشهير بهم علمنا من منافسيهم ومن هم أقل منهم منزلة (٤) انشغال الناس بالمسائل السياسية والاقتصادية وميل الكتاب الى الاهتمام بالناحية السياسية أكثر من اهتمامهم بالناحية الأدبية .

ويوافق عنان على تلك الأسباب في الجملة ، غير أنه يقول أن ثانياها هو أكثرها خطرا ، فان الوسيلة الحقيقية الى نمو القصة في مصر تنحصر في مركز المرأة الاجتماعى ويشير عنان الى أن الدور الذى لعبته المرأة في انماض الشعر العربى القديم لم يكن له علاقة بالقصة . لأن أساس القصة انما يوضع في مجتمع تلعب فيه المرأة دورا خطيرا ويكون المجتمع متأثرا بنفوذها خصوصا في رسم مستوى الخلق والسلوك . وكان من نتيجة فقدان هذا الأثر ضيق مجال الأدب العربى القديم والأدب الأوروبى في العصور الوسطى ونقصهما في جمال الشعور والعواطف . ولا يزال هذا الضيق موجودا في الأدب العربى الحديث لأن المستوى الاجتماعى لم يزل كما هو لم يتغير . وتعتبر قصة زينب احدى الشواهد التى تنهض دليلا على صحة القاعدة ، فان نجاحها انما يرجع الى تلك الحرية النسبية التى تتمتع بها المرأة في الحياة الريفية . وعلى ذلك فان عنانا لا يشارك هيكلك بك في تفاوله ، ففي نظره أنه لا يمكن أن تقدم القصة المصرية مالم تحسن تلك الظروف القائمة ، ولا يمكن أن تترجم أو تمثل العواطف والأخلاق السائدة في الحياة الاجتماعية . ولا ينتظر ان يكون لها مستقبل في التطور الأدبى الحديث مادامت الحياة الإسلامية محافظة على تقاليد الموروثة . وما قاله في هذا الصدد «استطعنا أن نقطع بأن المجتمع الإسلامى لا يمكن — متى بقى تطوره — وتقديمه محصورين في المبادئ الإسلامية الخالدة أو في التقاليد التى كانت أثرا لهذه المبادئ — ان يظفر كتاب القصص العربى يوما بمادة واسعة أو غزيرة كالتى يقدمها المجتمع الغربى الى كتاب الغرب أو ان يغدو الأثر الذى يفسحه للمرأة ذات يوم وحيال الفن والجمال » .

ولقد أدت مقالة عنان الى رد من جانب هيكلك بك يتعرض فيه الى الناحية « السيكولوجية » للوضوع ، وهي مقالة جديرة بأن تقرأ بمزيد الاهتمام . يقرر الكاتب أن الضعف الحقيقى في القصة القصيرة والقصة الطويلة في مصر انما يرجع الى عدم المقدرة على تفهم الحياة والى حاجتنا الى تربية العواطف ، فان العواطف النبيلة لا يمكن أن تثمر في حياة اجتماعية يقف فيها الشعور عند نقطة تقوم معها الأغراض الجسدية مقام أى عاطفة سامية من عواطف النفس الانسانية . وان أى فن لا يكون في الأصل قائما على حب الفنان لناحية من نواحي الحياة لا يمكن مطلقا أن يصل الى درجة الكمال ، وتطور غريزة الحب الى عاطفة انسانية سامية يحتاج الى تدريب طويل شاق وقد لا يكفى لبلوغ ذلك جيل بل عدة أجيال . وحتى فضيلتنا الأحسان والعطف يندر وجودهما في مظهرهما الاجتماعى الراقى في مصر . ولم يزل الحب أيضا قريبا من الغرائز الأولية ، ومن النادر أن يعثر المرء في هذه الناحية على مثل من المثل العليا الجميلة . وأخيرا يتلصص الكاتب أسباب نقص التهذيب العاطفى في انعدام وسائل التربية التى تقصد الى هذا الغرض في المنزل ، كما يتلصص في طرق التعليم القديمة التى تعد أدخل في باب الحرف منها في باب الانسانية .

ولم يكن من السهل مرور هذه المناقشات دون أن تثير معارضة من جهات مختلفة وسنوضح أحد هذه الانتقادات الشهيرة عند الكلام على قصة المازنى « ابراهيم الكاتب » ولقد صدرت تلك المعارضة عن صفوف المثقفين . وما قاله أحدهم في هذا الصدد... ما هذه المناقشة الطويلة حول القصة ؟ لقد سار الأدب العربى بدونها في الماضى ولم ينقص ذلك من قدره ، وان التطلع الى إيجاد القصة فيه الآن ليعد مثالا جديدا من أمثلة تقليد الأوربيين تقليدا ضارا ينذر بتقوض دعائم الحياة الاجتماعية في الشرق . ان القصة الغربية بما فيها من نقص وتزييف وعدم ملاءمة للتقاليد الاجتماعية في الشرق قد أثرت تأثيرا هداما في حياة مصر الاجتماعية . أفنسعى بعد ذلك وراء هذا الداء الويل ؟

« للبحث بقية »

oooooooooooo

زوروا مطبعة فاروق

٢٨ شارع المداين مصر